هجرة سمك التن (التونة) واصطياده ببلاد المغرب في العصر الوسيط

أ. د. محمد بن عميرة *

ملخص البحث

يتطرق هذا البحث إلي صنف الأسماك ألتي ينتمي إليه سمك ألتن وعن مكان انطلاق هجرته إلي جزيرة اقر يطيش (كريت) عابرا البحر الأبيض المتوسط طولا. بمحاذاة السواحل الشمالية لبلاد المغرب حيث يتم ترصده في نقاط معينة . تجهز فيها مضارب أين يتم اصطياد أعداد كبيرة منه يتراوح وزن السمكة الواحدة مابين ٧٠ و ٣٠٠ كلغ . بوسائل مختلفة ثم يستهلك طريا أو يجفف لوقت الحاجة و للتصدير إلي الأماكن البعيدة.

مقدمة

يتطرّق هذا البحث إلى أنواع الأسماك المتواجدة في سواحل بلاد المغرب ومن بينها سمك التن المهاجر غليها من سواحل المحيط الأطلسي، حسب ما ورد في مصادر العصر الوسيط، وصفات هذا النّوع من الأسماك وطرق اصطياده والتعامل به بعد ذلك.

يقسّم Doumènge (M. F.) أسماك البحر الأبيض المتوسط حسب ظروف الوسط الذي تعيش فيه: فمنها ما تعيش في الأعماق، ومنها ما تعيش على السطح، ومنها ما تعيش في اتّصال بينهما:

وتتميّز حياة أصناف الأعماق، من الأسماك، بنموّ أكثر بُطئا للجهاز العضوي (Organisme)، وبقدرة تكاثرية ضعيفة نسبيا، وتقوم بهجرات موسمية، ذات مدى قصير، تصل فيها دائما إلى مناطق صيدها، وأعماق البحر المتوسّط تقدّم مجموعة مكوّنة من أصناف كثيرة جدّا، لكن أعدادها تبقى دائما ضعيفة، لا تُصادُ منها سوى كميات قليلة ومتنوّعة جدًّا[1].

أمّا أصناف، ما بين السطح والأعماق، فهي توجد في الهُدَب البحرية (Franges lagunaires)، حيث تأتي الأسماك وبالأخصّ السلور (Anguille) والبوري (Muge) للنموّ في المياه الأجاجة (Saumâtre) ثمّ تتوجّه، بعد ذلك إلى

---

* قسم التاريخ- جامعة الجزائر٢

[1] -Problème de la pêche en Méditerranée occidentale, Bulletin de l'association de géographes français, N° 276-277, Juin-Juillet, 1958, P. 9.

المياه البحرية للتّكاثر، ويتيح نظام الهجرة هذا ظروفا مواتية جدّا للاستغلال الإنساني[١].

كما تتوفّر البيئة المتوسطية ظروفا حيّدة جدّا للأصناف لكن عدد أفراد الصنف الواحد منها كثير، وقُدرة تكاثر هذه الأصناف كبيرة جدًّا، والاستغلال الإنساني لها لا يكون إلاّ بالصدفة، وعادة ما تُعرف تحت اسم الأسماك الزرقاء، وتقوم بهجرات مهمة: بعضها ينتقل على المستوى العمودي (مثل السردين) والبعض الآخر على المستوى الأفقي (مثل التن)، ومهما يكن فإنّ أساس ثروة المياه السطحية المتوسطية تكوّنه هذه الأصناف المهاجرة[٢].

ويصنّف .Borrel A نفس الأسماك إلى مستقرّة ومهاجرة وقُشيرات (Crustacés) ومرجان متشعب (Madrépores)[٣] ويجعل الصفات الأساسية للأسماك المستقرّة العيشَ طول العام، تقريبا، في نفس المناطق، وبالتالي فهي تحتفظ بنمط معيشي مستقر إلى حدّ ما، وهذا لا يعني فرضَ سُكونٍ تام عليها ولكنّ تنقلاتها المنتظمة تكون على نطاق ضيّق، ولا تُبعدها على الشواطئ، وهي تحركات مشتركة، بين كلّ الأصناف، يتطلّبها، على الخصوص نموّ البلاعيط[*] والتسرئة، وهما السببان الدّائمان لتحرّكات جميع الأنواع[٤].

وتصطاد القشريات موسميا هي الأخرى، ومنها الكركند أي الجراد البحري (Langouste) وسرطان البحر (Himards) والجمبري (Crevettes)، ويعيش هذا الصنف من الأسماك في أعماق مولدة للمرجان (Coralligène) في مناطق صخرية، بها مَعْشبات[٥].

وأخيرا صنف الأسماك المهاجرة وهي التي تقوم بأسفار طويلة في البحر، ولا تظهر بجوار السواحل إلاّ في بعض الفترات، ومن ثمّة يكون صيدها، متناوبا أو موسميا، وهي بذلك تختلف عن سابقتها، ويكون ظهورها قرب الساحل، بعد غياب طويل، يدوم أغلب أوقات السنة، في فترة خاصة بكلّ نوع ومحدّدة جدًّا، وهي عادة في الربيع، حيث تصل بأعداد كبيرة مكوّنة أسرابا معتبرة، تتسارع، قرب سطح الماء، في أغلب الأحيان قرب الشاطئ، وتتبع كلّها مَعْبَرًا متشابها، في عرض سواحل تونس الشمالية، قادمة من

---

1 −Doumènge M. F., Op. Cit., P. 9.

2 −Doumènge M. F., Op. Cit., P. 9.

3 −Les pêche sur la côte septentrionale de la Tunisie, Presses universitaires de France, Paris, 1956, P. 22.

*− مفرد بلعوط: وهو فرخ سمكة يستعمل في تربية الأسماك، جبّور عبد النور وسهيل إدريس: المنهل، قاموس فرنسي− عربي، دار الآداب، بيروت، يونيو ١٩٧٠، ص. ٣٤.

4 −Borrel A., Op. Cit., P. 22.

5 −Ibid, P. 26.

الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ومتّجهة نحو قناة صقلية، وعندها يمكن للصيادين أن يباشروا إحاشات[٦] هامة، دون هوادة، وأن يصطادوا بالجملة تلك الأسماك، وعليهم انتهاز الفرصة لأنّ السراب تقلّ بسرعة، قبل أن تزول نهائيا. وتواصل الأسماك هجرتها الجماعية (Exode). وقد تفاجأ، أثناء عودتها، من رحلتها، إلى نقطة انطلاقها لكنّها تكون، عندئذ أقلّ إكتضاضًا[٧].

من الواضح أنّ هذه المعلومات المتعلّقة بأصناف الأسماك التي تعيش في البحر الأبيض المتوسط تمّ الاعتماد فيها على مصادر حديثة، وليس هناك ما يمنع من إسقاطها على العصر الوسيط، لأنّ مضمونها لم يتغيّر، بشكل ملحوظ، وبدون شكّ، منذ الفترة التي يغطيها هذا البحث، مع العلم أنّ مصادر ذلك الوقت لم تهتم بهذا الموضوع، وممّا لاحظه Vonderheyden، في هذا الباب، أنّ الكُتاب العرب القُدماء لهم نظرة خاصة في تناوله حيث كتب عدد منهم ما يُسمّى "كتب العجائب" أكّدوا فيها خصوصا، على أشياء استثنائية إلى حدٍّ ما وأهملوا وصف سير الحياة اليومية[٨].

وممّا أورده الإدريسي عن مصائد مدينة سبتة، ذهب إلى قوله إنّه: "لا يعد لها بلد في إصابة الحوت وجلبه، ويصاد بها من السمك، نحو مائة نوع، ويصاد بها السمك المسمى التن، وبها كثير منه"[٩] مع العلم أنّ المصادر المستخدمة في هذا البحث لم تشر إلى ما ذكره Vonderheyden من أنّ النصوص القديمة أعلنت عن وجود التن بمنطقة بجاية إضافة إلى سبتة، غير أنّ استنتاجه القاضي: أنّه ما دام اصطياد التن كان مزدهرا في التاريخ القديم، ولا يزال يمارس في التاريخ الحديث، بوسائل قديمة جدّا، ينبغي الاستنباط أنّه لم ينقطع أبدا من سواحل تونس الشمالية رغم سكوت المصادر عن ذلك[١٠]، يبدو منطقيا إلى حدّ بعيد، وإذا تمّ التّسليم به يمكن استنباط أنّ ما ينطبق على سواحل تونس ينطبق، بدون شك، على سواحل الجزائر ومن بينها ساحل بجاية.

ويكون مصدر هذا التّن، حسب ابن سعيد المغربي جون (خليج) التن الوقع في الجزء الأول من الإقليم الثاني، على ثلاث درجات من حدود الإقليم الثاني، وعرضه أكثر من درجتين، ويسمى أيضا الخليج الأخضر لقلة عمقه (لأنّ فيه أقاصير Hauts fonds) وما

٦- الإحاشة أو الحوش هي الالتفاف حول الصيد لدفعه إلى مكان صيده (المنهل، ص. ١٠٧).

7 -Borrel A., Op. Cit., P. 25.

8 -La pêche sur les cotes barbaresques au moyen Age, P. 6.

٩- المغرب العربي، من كتاب نزهة المشتاق للإدريسي، حققه ونقله إلى الفرنسية محمد حاج صادق، الجزائر، ١٠٨٣، ص. ١٦٥.

10 -Vonderheyden: Op. Cit., P. 13.

فيه من الحشيش الأخضر[١١]، وتمتدّ حدود هذا الجزء، في رأي (Cuoq J. M.)، من المحيط الأطلسي إلى حدود تانزروفت (Tanezrouft) الغربية طولا ومدينة أزوكي (Azoggi)، قرب أطرار، بشمال الساقية الحمراء (نول لمطة) عرضا[١٢].

ويروي ابن سعيد المغربي عن ابن فاطمة الذي ركب البحر المحيط، ذات يوم في نول لمطة، جنوب المغرب الأقصى، "فوقع إلى ضباب وأقاصير (Hauts fonds =bas fonds)، وضلّ البحريون ولم يعلموا حيث هم، حتى تركوا المركب الكبير وأخذوا زادا في القارب الصغير وصاروا يجُرّونه على الحشيش طوراً وطورا ينهضون بالمجاذيف إلى أن انتهوا، بعد مدّة، إلى قاع هذا الجون (الخليج)، وعاينوا من التن فيه، ومن كثرته، ما تعجبوا منه، وكذلك من الطيور البيض... فلمّا انتهوا إلى تحت الجبل اللمّاع، أشار عليهم برابرة كدّالة، ألا يقربوا الجبل، فأخذوا عنه شمالا حتى خرجوا عن حده... وسألهم أهل المركب عن تحذيرهم إياهم، عن الجبل اللمّاع، فقالوا كله حيّات مُهلِكة قتّالة... وساروا معهم إلى مدينة تغبرا، قاعدة كداله"[١٣].

الجبل اللماع هو الرّأس الأبيض الذي يحمي (abrite) الخليج السلوقي (baie du lévrier)، وهو الجون (الخليج) الذي كان فيه سرب التن، والطيور البيض هي البلشونات (Hérons)، وجون (خليج) التن، حسب ابن سعيد، هو الذي يقال له الجون الأخضر، لأنّ فيه أقاصير (Bas Fond = Hauts Fonds) وحشيشا أخضر كثيرا، وفي سرب التن، ويدخل مرة واحدة في بحر الرومان (الأبيض المتوسط)، ويعتقد الناس أنّ يحج إلى حجر معين في جزائر البحر ثمّ يعود من حيث أتى[١٤].

ويرى .Mauny R أنّ التن الذي ذكره ابن فاطمة، أثناء رحلته في القرن الثالث عشر الميلادي (٧هـ)، يكون محل صيد خاص، في مكانين فقط، من الساحل الصحراوي

١١- كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، الجزائر، ١٩٨٢؛ Cuoq J. M., dans recueil des sources arabes concernant l'Afrique occidentale du VIIe au XIVe S. (Bilad al- Suddan), traduit et notes par J. M. Cuoq, Paris 1975, P. 212.

12 -Ibid, PP. 211- 212, note 3.

١٣- أنظر ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص. ١١١- ١١٢؛ ويحدّد ابن سعيد موقع تغير حيث الطول ١١° والعرض ٢٠°.

١٤- كتاب الجغرافيا، ص. ١١١.

وهما: مصب الساقية الحمراء، وفي ناحية رأس بوجادرو (Cap Bojador) الواقع إلى الجنوب منه، على الخصوص[١٥].

وبالنسبة للزّهري فإنّ حوت التن يتكون في بلاد النوبة التي تكون في الصقع (zone) الأول من الجزء (Section) السابع[*] حيث ينقطع البحر ويصير خلجانا كثيرة، بسبب ارتفاع الأرض، في حين تَحدُث ظاهرة تفرع المحيط إلى خلجان، حسب ابن زنبل، في بلاد السودان وبها يتكون سمك التن، ويتّفق المصدران الأخيران، على أنّه يتّجه من مكان تكونه نحو الأندلس وجزيرة إقريطش (كريت)، قاطعا البحر من الجنوب إلى الشمال حتى يصل إلى الخليج المسمى بالزقاق (مضيق جبل طارق) ثمّ يقطع أربعمائة وألف (١٤٠٠) فرسخا (Parasanges)، من نقطة انطلاقه إلى نقطة وصوله، في يوم وليلة (أربع وعشرون ساعة)؛ ولا يخرج للهجرة إلاّ في أوّل يوم من شهر مايو، وقد يصل جزيرة كريت في اليوم الثاني منه، وتدوم هجرته شهرا، ثمّ يعود من حيث أتى، في أوّل يونيو[١٦].

ويتميّز التن، حسب الملاحظات الحديثة، بجسم ضخم، أزرق صلب، يبلغ بضواحي الشواطئ التونسية حجما هائلا، حيث يبلغ طوله ما بين متر واحد وثلاثة أمتار، ووزنه ما بين ٧٠ و٣٠٠ كيلوغراما وأكثر، وهو يقترب من الساحل ليدخل في منطقة الصّيد، في نهاية مايو، وعندها يُشرع في صيده، غير أنّ مشكل أجناسه وأصله ومكان قدومه، مازال مطروحا بكامله، وهو يعيش عادة في الأعماق الكبيرة، بعيدا عن السواحل فلا يقترب منها إلاّ في هذا الموسم.

ويتّفق كلّ من الزهري وان زنبل على أنّ سمك التن يصطاد عند أوّل خروجه ببلاد الأندلس، وفي جزيرة كريت التي تصل إليها رحلته، وفي أوّل يونيو يعود إلى مكانه، مرورا بمضيق جبل طارق، فيصاد عند طرف الفخ، وهو طرف جبل طارق أو جبل الفتح، ويصاد ما دخل منه في حوز (خليج) مربلة ومليلة بالشباك، وما خرج منه على

---

15 –Les navigations médiévales sur les cotes sahariennes antérieures à la découverte portugaise (1434), Lisboa, 1960, P. 89.

(*)– يشمل هذا الجزء بلاد السودان وأرض الحبشة والزنج والنوبة؛

(كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، نشره L'institut français de Damas, Bulletin d'études orientales, T. XXI, année 1968، ص. ١١٩؛ الترجمة الفرنسية في Cuoq J. M., Op. cit., PP. 115-116.

16 –Ibn Zenbel: Tohfat el Molouk, extraits relatifs au Maghreb, traduit de L'arabe et annotés par E. Fagnan, Alger 1924, PP. 187- 188.

طرف الفخ إلى ساحل المغرب فيصاد في المكان المسمى تامسان أو منتاز، من عمل سبتة؛ وأمّا ما شق منه على وسط المضيق، شرق جزيرة طريف، فلا يُتمكّن منه، بل من حيث أتى ولا يغادر مكانه إلاّ في نفس الشهر من السنة الموالية[١٧].

أمّا طريقة صيده فزيادة عن استخدام الشباك التي يتحدّث عنها المصدران السّابقان فإنّ الإدريسي يشير إلى استخدام رماح لها في أسِنّتها أجنحة بارزة تنشب (ترشق) في الحوت ولا تخرج، وفي أطراف عصيّها شرائط (حبال) طوال من القنّب، ومهارة صيادي سبتة بالرمح لا مثيل لها[١٨]؛ ويعتقد Venderheyden أنّ هناك طريقة صيد تتطلّب نزهة صغيرة في عرض البحر، لا بدّ وأن تكون قد عُرفت، على الرغم من أنّ المصادر لا تتحدّث عنها بصراحة: إنّها المضربة (La madrague)، وهي عبارة عن شبكة معقّدة إلى حدّ ما، ومفصلية، تنصَّبُ عموديا على الشاطئ (Rivage) لتوقيف مرور التنّ، وقد تكون طريقة قديمة جدًّا، لأنّ التنّ كان يصطاد في فترة التاريخ القديم وخاصة في منطقة صقلية، أثناء رحلته نحو الشرق للتسرئة، حيث يقترب كثيرا من الشواطئ (من ٧٠٠ إلى ١٥٠٠م)، وقد قُدّر عدد أسماك التنّ المصطادة في مضربة مدينة بنزرت سنة ١٨٤٦ بأربعة إلى خمسة آلاف سمكة سنويا، والآلات التي مازال الصيادون يعملون بها، وعادات الحيل المرتبطة بها، لا يبدو أنّها تغيّرت منذ قرون[١٩].

ويلاحظ نفس المؤلف أنّ كلمة Madrague الفرنسية مأخوذة من Almadraba الإسبانية المنبثقة عن المضربة العربية، وتعني مكان الضّرب، إذ أنّ الأسماك، عندما تُستدرج إلى ما تطوله يدُ الإنسان من الشاطئ تتعرّض للضرب بكلّ قوّة الذراع (à tour de bras) بالفؤوس (Haches) وسرعان ما تغطي الشاطئ جثث دموية مثلما يحدث في معركة شنيعة[٢٠] كما يُضرب أيضا عن بعد، مثلما ذكر الإدريسي.

ويرى Lombard M. أنّ الصيد كان يمارس إمّا بالرّمح (Harpon)، كما يحدث في أيّامنا بمضيق صقلية وإمّا بالمضربة أي مجموعة من الشِّباك الثابتة، تُوجّه إليها أسراب التّن وتسمّى هذه الشّباك (Tonnaria) حاليا في صقلية، والمضربة عبارة عن قفّة، على شكل قارورات (Bouteilles) ذوات أعناق (Goulots) ضيّقة[٢١].

١٧- قارن. الزهري، المصدر السابق، ص. ١٢٠؛ Ibn Zenbel: Op. cit., PP. 188- 189.

١٨- المغرب العربي، ص. ١٨٣؛ الترجمة الفرنسية لمحمد حاج صادق، ص. ١٦٥.

19 -Venderheyden, Op. cit., PP. 20-21.

20 -Ibid, P. 21.

21 -L'Islam dans sa première grandeur (VII-XI e S.), Paris 1971, P. 189.

ويتّفق الزّهري وابن زنبل أيضا على القول من أنّه: ليس في البحر حوت أسْمن ولا أطيب من التنّ، ولا يعرف لماذا يذهب الأول إلى القول إنّه: "لا يؤكل في معمور الأرض طريًّا إلاّ في الأندلس"[٢٢]، ويضيف الثاني إلى الأندلس المغرب "قرب سبتة"[٢٣] مع أنّ المصدرين يتّفقان على أنّه كان يُصطاد بكثرة في جزيرة إقريطش (كريت)[٢٤]، على سبيل المثال، وهل يعقل أن يصطاد بكثرة في مكان مَا ولا يؤكل منه طريا؟

وينقل Vonderheyden عن Mas- latrie[٢٥] من أن الأسماك المملوحة كانت، حوالي ١٣٥٠م ترسل، من سواحل بلاد البربر (بجاية)، إلى أوروبا، ممّا يوحي بأنّ صناعة التّمليح كانت رائجة ولا شكّ أنّ سمك التنّ كان من بينها؛ وقد كان منتوج السرة البربرية (La Sorra Barbarie) يحظى بتقدير خاص لدى سكان تلك القارة، وهو عبارة عن بيض التنّ المملوح وأمعائه؛ وهناك احتمال كبير أن يكون كافيار بيض البوري (Caviar d'œufs de mulet) معروفا ببجاية آنذاك، فهذه المادة (Substance) تسمى Boutargue وهي كلمة مأخوذة من كلمة بطارخ العربية، ويسمّى أيضا Poutargue[٢٦] تطلق كذلك على مبيض (Ovaire) التن[٢٧].

وممّا أفاد به القزويني أنّ يهود سبتة، كانوا يقدّدون سمك موسى (La Sole) ويحملونه إلى الأماكن البعيدة للهدايا[٢٨]، كما كان سمك التنّ يبيّس (يجفّف) ليدخر، ويصدر إلى سائر بلاد المغرب، ومن كريت إلى روما القسطنطينية[٢٩] وإلى سائر البلاد بأوفر ثمن في زمن العنب والتّين[٣٠].

يعتبر سمك التنّ، إذا، من الأسماك الزرقاء المهاجرة التي تظهر موسميا، بجوار سواحل بلاد المغرب، لفترة واحدة سنويا، قادما إليها من المحيط الأطلسي، عبر مضيق جبل طارق، وقاشدا جزيرة كريت حيث يقوم بعملية التسرئة، وأثناء قيامه بتلك الرحلة وعودته

٢٢- كتاب الجغرافية، ص. ١٢٠.

٢٣- Ibn Zenbel: Op. Cit., P. 189.

٢٤- الزهري: نفس المصدر، ص. ١٢٠؛ Ibn Zenbel: Op. Cit., P. 188.

25 -Relations et commerce de l'Afrique septentrionale avec les nations chrétiennes, P. 373.

٢٦- أنظر: Vonderheyden: Op. Cit., P. 27.

27 -Id, note 6 : عنه أنظر؛ Dozy R., Op. Cit., T. 1, P. 94.

٢٨- آثار البلاد، ط. دار صادر، بيروت، ص. ٢٠١.

29 -Ibn Zenbel: Op. Cit., P. 189.

٣٠- ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، ص. ١١١.

منها، يتيح للصّيادين فرصة اصطياده بطرق مختلفة ويستهلك طريّا أو يجفّف هو وأمعاؤه وبيضه ليصدّر إلى مختلف نواحي بلاد المغرب وإلى أوروبا.

بيبليوغرافيا:

العربية:

- الإدريسي، المغرب العربي، من كتاب نزهة المشتاق، حققه ونقله إلى الفرنسية محمد حاج صادق، الجزائر.
- جبّور عبد النور وسهيل إذريس: المنهل، قاموس فرنسي–عربي، دار الآداب، بيؤوت، يونيو ١٩٧٠.
- الزهري، كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، نشره نشره L'institut français de Damas, Bulletin des études orientaux, T. XXI, année 1968.
- ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، الجزائر، ١٩٨٢.

الأجنبية:

- Borrel A., Les pêche sur la côte septentrionale de la Tunisie, Presses universitaires de France, Paris, 1956.
- Cuoq J. M., dans recueil des sources arabes concernant l'Afrique occidentale du VII au XIV^{e} S. (Bilad al-Suddan), traduction et notes par J.M. Cuoq, Paris 1975.
- De Mas-Latrie, Relations et commerce de l'Afrique septentrionale avec les nations chrétiennes.
- Doumènge M. F., Problème de la pêche en Méditerranée occidentale, Bulletin de l'association de géographes français, N° 276-277, Juin-Juillet, 1958.
- Ibn Zenbel: Tohfat el Molouk, extraits relatifs au Maghreb, traduit de L'arabe et annotés par E. Fagnan, Alger 1924.
- Lombard M., L'Islam dans sa première grandeur (VII-XI^{e} S.), Paris 1971.
- Mauny R., Les navigations médiévales sur les cotes sahariennes antérieures à la découverte portugaise (1434), Lisboa, 1960.
- Vonderheyden, La pêche sur les cotes barbarèsques au Moyen Age.